

علاقتنا بالقرآن الكريم



من أهم ما نتحدث عنه هو القرآن وما يعطيه للأُمَّة، وأهم آثاره للأُمَّة، وأهم تربيته للأُمَّة، الحديث عن القرآن هو الحديث عن الشريعة، عن الإسلام.. هو الحديث عن الله (سبحانه وتعالى).

والحديث عن الشريعة والحديث عن الله (سبحانه وتعالى) وأوامره ونواهيه وخلقُه لا يمكن أن ينتهي!.. كما قال تعالى في سورة الكهف/ الآية 109:

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَوْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي).

إلا أننا نذكر بعض ما في القرآن الكريم من الهدى والخير والبشارة والرحمة، فالقرآن الكريم هو للناس جميعاً، للناس كافة وهو الذي يُحقِّق لهم السعادة، السعادة السليمة، السعادة الحقَّة، السعادة التامة، السعادة المستمرة، السعادة الثابتة.

فنرى أن القرآن يعطي للأُمَّة:

أوَّلاً: الهدى.. الهداية.

هذا الهدى الذي يوصل الأُمَّة إلى كل خير وسلامة، والذي يبلغ بالأُمَّة إلى كلِّ كمال يتطلَّع إليه الصالحون والمتقون والمؤمنون.

ولهذا يقول تعالى في سورة البقرة/ الآيات 1-2:

(الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ).

نعم، فهو هدى لهم.

ثانياً: هو الرحمة، الرحمة للعالمين، فبالقرآن الكريم حصل الإنقاذ للأُمَّة من الظلمة إلى النور، فهو رحمة بأتمِّ معانيها وأبدع صورها.

يقول □ تعالى في سورة لقمان/ الآيات 1-3:

(الم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ).

ثالثاً: هو الشفاء.

الشفاء لمن؟..

الشفاء لجميع الأمراض النفسية والروحية والداخلية والتعقيدات الذهنية الفكرية، فهو الشفاء لجميع أمراض النفس سواءاً كانت: النفسية، العقلية، القلبية، الاجتماعية.

فهو شفاء من الكفر والإلحاد.. وشفاء من الكفر والشك.. وشفاء من القلق والحيرة.. وشفاء من الخوف والكيد والحسد والبخل والشح.. وشفاء من الظلم والتجبر، إلى آخر ما يمكن أن يقال.

قال تعالى في سورة الإسراء/ الآية:

(وَنُنَزِّلُ لُمِّنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ).

رابعاً: هو البرهان، هو البرهان والنور الكاشف لجميع الظلمات، المبدد لسائر الشكوك، الشكوك الداخلية والنفسية والجهالات الفكرية والعقلية.

يقول تعالى في سورة النساء/ الآية 174:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا).

فهو البرهان.

خامساً: القرآن هو الروح الذي تتوفّف عليه حياة الإنسان، هو الروح اللازمة للحياة الإنسانية، الحياة الفاضلة الكريمة العزيزة التي يريدها □ (سبحانه وتعالى) للأُمَّة.

ولهذا نرى أنّ الأُمَّة من غير أن تسري فيهم الروح القرآنية، يكونون أمواتاً حقّاً!.. لا ينتفعون بوجودهم ولا معنى لوجودهم، ولا ينتفعون بحياتهم المادية.

لذلك يقول تعالى في سورة الشورى/ الآية 52:

(وَكَذَلِكَ أَوْدَعْنَاهُ لِّلِيبِ كَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَئِكَ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَفِي هُدًى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الشورى/ 52).

سادساً: هو الحقُّ الإلهي الثابت، الثابت في نفسه والمحقق المُثبَّت لغيره من كلِّ ما هو حقٌّ،

فكلُّ حقٍّ يؤيده القرآن، فكلُّ حقٍّ يقرُّه القرآن، يُثبِّتُه القرآن.

ولذلك يقول تعالى في سورة الإسراء/ الآية 105:

(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ).

ويقول تعالى في سورة الزمر/ الآية 41:

(أَنْزَلْنَاهُ عَلَىٰ ذِكْرِ الْكِتَابِ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ).

فهو الحقُّ.. فهو الحقُّ من الحقِّ.. وهل بعد الحقِّ إلا الضلال؟!..

فهو الحقُّ وحده، ولا حقَّ غيره..

سابعاً: هو البيان والتبيين.. القرآن هو البيان.. والتبيين.. هو البيان للأُمَّة، والتبيين لها.

فهو البيان والتبيين لكلِّ شيء، يحتاج إليه الإنسان، وتحتاج إليه الأُمَّة.. كلُّ شيء تحتاج إليه مما يسبِّب سعادتها، واطمئنانها، ووجودها، وكرامتها، وعزتها، وفكرها، وعقيدتها، وأمنها، وإيمانها، يقول في ذلك عزٌّ من قائل في سورة النحل/ الآية 89:

(وَنَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ ذِكْرِ الْكِتَابِ تَبْيِيحَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ).

ثامناً: هو الخير العام.. للجميع، هو الخير العام.. للكون، هو الخير العام.. للوجود، هو الخير العام.. لكلِّ إنسان، وجان، وحيوان، ونبات، وكلِّ ما في الوجود.. فما من كائن في الوجود، إلا ويناله الخير من القرآن الكريم، من يوم نزول.. إلى يوم قيامته، يقول تعالى في كتابه في سورة النحل/ الآية 30:

(وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا).

فهو الخير للجميع.

تاسعاً: هو البشري.. والسعادة، في الدنيا.. وفي الآخرة، يقول عزٌّ من قائل في ذلك في سورة النحل/ الآية 89:

(وَنَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ ذِكْرِ الْكِتَابِ تَبْيِيحَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ).

فهو البشري، وهو السعادة.

عاشراً: هو الموعظة، الداعية.. الدافعة.. الحارِّثة، إلى اكتساب كلِّ أنواع الفضيلة، والخير، والسعادة.. هو الموعظة، الزاجرة.. المانعة عن كلِّ أنواع الرذيلة والانحراف، قال تعالى في سورة يونس/ الآية 57:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَوْكُّمُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ).

فهو الموعظة للأُمَّة.

حادي عشر: هو الذكر الإلهي.. الذكر الإلهي، الذي تحيي به القلوب.. الذي تطمئن به الأرواح والنفوس، هو الذكر الإلهي، الذي تطيب به العقول، والأفكار، والأرواح.. هو الذكر الإلهي، الذي تزكو به الأعمال، فلا يطيب عمل من دون ذكر الله (سبحانه وتعالى) ومن دون العمل بأمره، ومن دون انتهاج نهجه، وتسليكه قرآنه، قال تعالى في سورة ص/ الآية 1:

(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ).

وقال سبحانه في سورة الزخرف/ الآية 44:

(وَإِنْ زَئِبَةً لَّذِكْرُهُ لَكَ وَلِلْعَاقِبَةِ).

فهو الذكر للأُمَّة، ويمكن أن نستفيد من كونه (الذكر) هو:

دائماً، المذكر لها، الواعظ لها، المنبِّه لها في حياتها الدنيا، لأنَّ الناس، كما في الحديث:

"الناس نيامٌ"

متى ينتبهون؟!..

"إذا ماتوا انتبهوا".

فالقرآن الكريم هو المذكر للأُمَّة في حياتها، المنبِّه لها، نعم، هذا هو قرآننا العظيم.. هذا هو كتاب الله الذي أنزله على نبيه، وجعله هدىً ورحمةً، إلى الناس أجمعين.. جعله هدىً ورحمةً إلى الأُمَّة كافة، يقيم أودهم، ويصلح شأنهم، ويوفِّر لهم حياةً كريمةً، تزدهر بالعدل والأمن والرخاء والإخاء، ويسود فيها نظام مستقر متوازن.

مستقر على أساس الكتاب الإلهي، ومتوازن على أساس العدل الإلهي.. لا وجود فيه للبؤس والحرمان.. هذا هو القرآن.. معجزة الإسلام الخالدة، لا من حيث بلاغته فحسب، والتي هي - أي البلاغة - أرقى أنواع البلاغة في الكلام العربي، وإنَّما لنظامه المتطور الذي يساير الإنسانية، في جميع مراحل حياتها، وتاريخها.

هذا هو القرآن الكريم، الذي هو نفحةٌ ربانيةٌ، من نفحات الله (تعالى) على عباده.. يملأ قلوبهم إيماناً ومودةً وإخاءً وصفاءً ورحمةً وعطاءً.. ويشيع فيهم الأخلاق الفاضلة، والصفات الكريمة، التي تسمو بها الحياة، التي تسمو بها الأُمَّة وتسمو بها الحياة إلى أعلى قيم المجد والخلود، هذا هو القرآن.. هذا هو القرآن الكريم.

فالقول بوقوع التحريف فيه، ينافي القرآن الكريم.. ينافي السنَّة المحمدية. ينافي العقل والإجماع، فهو بعيد عن الواقع، وخالف من جميع المقومات العلمية.

هذا هو القرآن الكريم..

هذا هو القرآن العظيم..

والذي أمرنا النبي (ص) أن نتلوهُ في شهر رمضان.. الشهر المبارك.. شهر القرآن.. شهر رمضان، حتى أنَّه قال في دعائه في أحد أيام شهر رمضان المبارك: "ووفَّقني فيه لقراءة آياتك برحمتك يا أرحم الراحمين".

هنا ننتهي إلى حقيقة، هي:

إنَّ أوَّلَ طريق معرفة □ (تعالى) يمرَّ عبر "مرضاة □"، والتي هي من ثمرات "حبَّ □" .. فإنَّ مَن يحبَّ □، يحبُّ كلَّ ما في الكون، لأنَّها من آثار □ (تعالى) .. وهي في الوقت نفسه آيات □ (سبحانه).

فقراءة الآيات تعني: مشاهدة آثار □ في الوجود، والتفكُّر بها، والتدبُّر فيها، لزيادة التعرُّف على □ (تعالى).

قال أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب (ع): "لا خيرَ في عبادة لا فقه فيها، ولا في قراءة لا تدبُّر فيها".

إنَّ الداعي يطلب من □، أن يوفِّقه ويُسدِّد خطاه، ويُهيئ الظروف المناسبة له، ليتمكَّن من النظر والاعتبار والتفهم في عجائب مُنْذَع □ (تعالى) الدالة عليه.

ويجدر بنا أن نقول هنا.. أنَّهُ لا يعتبر بآيات □ ولا يفهمها إلاَّ مَن طابت سريرته وطهرت إلى حدٍّ ما نفسه، وصلح عمله.. حينئذٍ تكون نفسه نقية، تتجه إلى عجائب □، وإلى ما وراء الطبيعة، بصورة فطرية تلقائية.

إنَّ قراءة آيات □ (عزَّ وجلَّ) تكون على شكلين:

1- قراءة آيات □ نظرياً.

2- قراءة آيات □ عملياً.

1- قراءة آيات □ نظرياً:

وتعني.. قراءة الآيات الإلهية في كتابه الحكيم.. القرآن الكريم.. فالداعي يطلب من □ (تعالى)، أو يوفِّقه ليتمكن من قراءة آيات القرآن، ليس باللسان واللفظ اللغوي فقط، بل بالقراءة الواعية المتفهِّمة مع التدبُّر والتفكير في معاني الآيات.. حينذاك يصبح القرآن الكريم عين لا تنصب لتذكره الداعي باً وبمحكم آياته.. قال تعالى في سورة محمد/ الآية 24:

(أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا).

وعلى الداعي أن يحسَّس نفسه باستمرار، بأنَّ المتكلِّم معه مباشرة في القرآن، هو □ (تعالى) .. ولكن استشعار هذه المسألة دائماً، تحتاج إلى استحضار وتفكُّر وتأمل، عند كلِّ قراءة، وعند كلِّ تعامل معه، فإنَّ ذلك من مكملات التفاعل مع القرآن الكريم ومعانيه، ومن مكملات الاتصال به (سبحانه وتعالى) عند القراءة والتعامل.. قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع): "وإنَّ لقد تجلَّى □ (عزَّ وجلَّ) لخلقه في كلامه، ولكن لا يبصرون".

إنَّ التفكُّر في آيات □ في القرآن، هو الأسلوب الذي يعيش به الداعي الحقائق الأساسية في الإسلام.. وهو الطريق الذي لا بدَّ أن يسلكه كلُّ مَن أراد بناء نفسه بناءاً متكاملًا، وكلُّ مَن أراد التصاعد في الطريق الذي وضعه □ (تعالى) ليسيِّر عليه عباده.. قال أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب (ع): "نبَّه بالتفكُّر قلبك، وجافَّ عن الليل جنبك، واتقِ □ ربَّك".

فمن الأفضل للداعي، وهو في شهر رمضان، الذي هو شهر ربيع القرآن، أن يستزيد من قراءة آيات □ القرآنية في تدبر وخشوع قلب وتنبيه ذهن، ولا يسهل له ذلك إلاَّ بتوفيق من □ ورحمة منه.

2- قراءة آيات القرآن عملياً:

وتعني.. قراءة الآيات الإلهية في الكون، وفي الإنسان. فالداعي يطلب من القرآن (تعالى)، أن يوفقه لقراءة الآيات الإلهية في الكون، وفي خلق الإنسان.. ليس بالرؤية والمشاهدة بالعين المجردة فقط، بل بالتفهم والتدبر والاستبصار.. حينذاك تكون عجائب وآثار القرآن (تعالى) في الوجود، وسائل لتذكير الداعي وجعله يفكر في عظمة قدرته تعالى.

قال تعالى في سورة آل عمران/ الآية 190:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَّاءَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِذِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ).

إنَّ القرآن (تعالى) أكّد في آيات كثيرة، أن نتبع الكون وما أودع فيه من نظم وقوانين تربط أجزاء الكون بعضها ببعض.. كي نزداد معرفة بالقرآن (تعالى)، فنخشع له، وذلك بتقديسه وتسبيحه والعمل بما أمَرَ به، فنزداد بصيرة، وذلك غاية الغايات.. وفي الحديث الشريف: "أعلمكم بالقرآن، أخوفكم له".

شرط لا يتجرّد هذا العلم - أي العلم بأحوال الكون - عن طاعة القرآن (تعالى)، وأن لا يكون آلة هدم وتخريب.. قال أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب (ع): "كثرة العلم في غير طاعة القرآن مادة للذنوب".

أما عن الحِكَم والعجائب والقدرات الإلهية المودعة في النشأة الإنسانية، فهي أكثر من أن تُعد وتحصى.. سواء في نشأة الجسد ككلّ، أو في تكوين كلّ جزء منه، وتربطها مع بعضها، أو في نشأة الروح والنفس وطبيعتها وصفاتها، وفي كيفية تعلّقها مع الجسد.

قال تعالى في سورة الذاريات/ الآيات 20-21:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَرْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ).

إنَّ النظر إلى خَلْق الإنسان بدون تعجب، إنَّما هو من الغفلة عن قدرة القرآن العظيمة.. فيجب التبصر والتفهم والتفكير لاستيعاب آيات القرآن في النشأة الإنسانية.. قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع):

"إنَّ الصورة الإنسانية أكبر حجة على خَلْقِهِ وهي الكتاب الذي كتبه بيده، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته، وهي مجموع صور العالمين، وهي المختصر من العلوم في اللوح المحفوظ، وهي الشاهد على كلّ غائب، وهي الحجة على كلّ جاحد، وهي الطريق المستقيم إلى كلّ خير، وهي الصراط الممدود بين الجنّة والنار".

إذن ينبغي للداعي، أن لا يخلو في يوم وليلة عن التفكير في آثار القرآن.. وإذا استغرق برهة من وقته في هذا التفكير، وبرهة أخرى في التفكير في عجائب قدرة ربه، وصار ذلك اعتياداً له، حصل لنفسه كمال قوتها العقلية والعملية، وخلصت من الوسواس الشيطانية والخواطر النفسانية السيئة.. قال رسول القرآن (ص): "أفضل العبادة، إيمان الفكر في القرآن - أي آثاره - وفي قدرته".

وأخيراً، فإنَّ الداعي بهذا الدعاء، قد اعتمد (في كلّ مطالبه من القرآن) (تعالى) على رحمته تعالى.. حيث تعلّقت إرادة القرآن (عزّ وجلّ) بإيصال الرحمة إلى جميع خَلْقِهِ، فهو أرحم الراحمين لكلّ البشر، سواء فيهم المطيع أو المسيء الذي يستحق عقوبة القرآن (تعالى) عليه.. وقد جاء في الخبر القدسي: "رحمتي تغلب على غضبي".

